مراثي الزمن العابر

محمد بدوي

فضاء

القراءاتُ اشتباهٌ يفـزّع في الطمي صـوتَ البنـاتِ اللواتي يجئنَ مـع الفجر سيلاً بَهياً تصيرُ المضـايقُ أفقاً إذا الناسُ مرّوا خِفافاً خِفـافاً فَكـوني وُضـوحَ الحقـولِ وذِمّـى اشتبـاهَ الغصونِ ورجّى مياهَ السكونِ العميقِ فـإن الجرارَ القـديماتِ حـاجاتُ من سَـافـروا في السَـرى مثقلين بمـوتِ النجومْ.

جَامحُ وهْجُ هذي المرايا ـ زوايـا الدخولِ ونَـامِ نخيلُ الـربيعِ الـذي حاصرته العواصفْ.

إنِ الليـلُ كـانَ جميـلاً سنـدْحـوه صُبْحـاً قبيحـاً فـإن الشمـوسَ شَميمُ رخيمٌ وكلُ الليالي تتاجرُ في القلب.

في اللحـظاتِ الجميـلاتِ ينمـو الوسيمُ النسيمُ ـ لو أذى بالاغنياتْ.

وكـلُ الملوكِ يجيئـونَ من أرضِ شوْكٍ يماثلُ ظلَّ المديح دِمَاهمْ تَنَثُّ ازْرِقـاقَ السماءِ وعبقُ عجينِ الكفـورِ ينادي الشوَاديفَ كانتْ حقولُ البـلادِ تخبُّ بثـوبِ الخَـراجِ وتغفـو وتغفـو وثمـة مَنْ ينْحَـرونَ الخِـرافَ لـوثنِ الهديلِ الظليل.

كِـلاَنَا مُنيـخٌ جِمالَ الهُـدوءِ وكلتا السَمـاءين فتحٌ ومنـحٌ لكـل الـذين استطاب لأسنانهم لحم هـذى البلادِ

فهل راوغتنا السماءُ التي زانها صوتُ هذي النفوس المليئاتِ نحلاً وعسلاً شهياً مُبَاحاً لمن يشتهون.

وهـل حلْمنـا سـاحـةٌ لانتحـارِ اليمامات هذي التي ساكنتنـا طويـلاً طـويـلاً وجـاءت نبـالُ الـذين انتموْا للضجيجِ فكفّتْ عن الأفقِ شـوقَ الفضاء.

دِمَاءُ وصايا الحقولِ البخيلةِ هذي التي طينُها مِنْ وجوه الذين يروْن فوق الـزنودِ النحيلةِ نخـلاً وعِنبـاً ليُعْصَـرَ خمـراً يُضـوىء أقـداحَ مَنْ لحمُهم سمهري طَريٌ شبيه بألْقِ الربيع.

بعيـدٌ هـو الأفقُ يبـدو حُقَيْـلاً مِن

الوهج والبرق حينَ ينامُ الصغارُ عراةً من الومضِ أشياؤهم غادرتّ يومهم فاستشاطوا طيوراً يجاذبُ منها الجناحُ حديدَ القفص.

اعذرونا إذا عكرَ الصوتُ منا خَضَار الليالي فليس الفضاءُ الفسيحُ وليسَ البهاءُ الجريحُ وليس الذي كانَ حلماً سَيُطْوى مع الليلِ ساحاتُ حلمِ الضِعاف النّحاف ستغدو عباءات دمٍ ثقيلٍ سخينٍ يغطى الخواصَر ـ هذي المدائن.

أُرْجَوَانُ دمي لا يغطى الحدائقَ لكنّه ينتمي للضجيج ويسرفُ في عشقه الفذِّ للرعدِ في نهدِ بنتٍ تجيء في ثوبها الشيَتِ موعدَ حبٍّ غريرْ.

الخروج

البداياتُ عادةً فاتنهْ
والمرايا تشابهُ ظلَّ الغريبْ
والغصونُ الأمانى تظلّل قلبي
قلتُ أبحثُ عن ساحةٍ ترتديني
نامَ قلبي بفرسن الوميض الدفيء
والوضوح زهورٌ تنشّ الضجيجْ
صاحتْ الأرضُ دربُك ظلٌّ وظلّ
وصَاحَ البعيدُ المراوغُ أفقُ الأماني
تعالَ اشتجْر بالعصيرِ السخيّ
ترى النهرَ نُهْراً
كبّلتُه الأغاني
يجاسده السكونُ الصفيقْ
أمامَك وَرْدٌ سيضحى أنيسَ الشواهدْ
وخلفَك بحرٌ خاطه الليلُ ثوباً
ولكنْ
إلى أين تهربْ؟
كيف تراوغُ في مقلتيك النداءْ
طريقٌ
من النيلِ يبدأْ
طريقٌ بحجمِ امتلاكِ النساءْ
بحجم المقاصل في ليل أهلك
بحجم وعودِ الجميل المضيء
الذي أخطأَ الموعدَ
قلتُ سيفيَ ضَيْفٌ
لا يطيلُ المكوثْ
ونهري الذي دجّنته النساءُ
اللواتي يُجدنَ حديثَ الوصايا
سيغدو الصقيلَ الجميلَ
الذي شاهدَ الأرضَ
لم يَنْحَنِ بل تطاولْ
وقلتُ الترابُ المصابُ بحبِّ الورودِ
التي تبهرُ القادمين
سيهوى ورودي الجميلهْ
وأوْلمتُ للنيلِ
للساحةِ القرمزيه
للفاتنات المصاباتِ بالعشقِ
والأوسمهْ
وأخبرتهم أنني راحلٌ في هوىً قاحلٍ
أهتدي المواريثْ
ويشفعُ في ساحةِ العشق لي شارةُ
من هديلِ النخيلْ
ومن هسهساتِ الأكاسيا
ومن كبوة الفارس القرمطي

أفق

قسوةٌ هائلهْ...
هذه التي ترتدينا فنعلمُ أن البداياتِ ليست شموساً ونوقنُ كيف النهاياتُ كانت رؤوساً ـ زهوراً ستُقْطفُ في لحظةٍ لا تخاتلْ وليستْ نهوداً سياطُ الذين اشتهونا وكنا لحوماً طريهْ.

قسوة قاتله...

تلك التي مرّغتنا بطينٍ شقيٍّ فكان الضبابُ ارتشافَ المنايا وكان الخرابُ اشتياقَ الصغيراتِ ثم انتفى الفارقُ المتوجّعُ بين السماءِ وبين الأصابعْ.

فاتناً كان لعبُ الصغارِ الذين استباحوا وصَايا الجدودِ وحملوا ولم يبْكوا جثمانَ رجلٍ عجوزٍ وسموه سجادةً منمنمةً لا قصيدهْ.

نافرٌ صيفنا مُتْضٍ سيفه قاسماً بطن هذي المدائنِ هذا البابُ التشهّي النضيرُ وهذي قشورُ الجفافِ المعقّدْ.

صوت

سنمضي وئيداً
لأن السلاحفَ لا ترتدي قبّعهْ
لأن عيونَ المحبّين فينا تجيدُ التسوّلْ
سنمضي
ونرقبُ ضوءاً سنعرفه من شذاها
شذاها الذي حيّر العاشقين
وفي كلّ ربوهْ
وفوق تلالِ الصحارى المريرهْ
سنوقفُ ركباً ما به من جلالْ
سنشعلُ تبغاً رخيصاً.
ونوقد ناراً
لعلَّ أفاعي الوجيعةِ تغفو قليلاً
تمدُّ رؤوساً تفحُّ المنونْ

مَنُوْنٌ ينامُ بصدرِ الذين احتموا بالوصايا
ارتموا فوقَ أقدامِ مجدِ الجدودْ
ليشكوا لهم قسوةَ الأسئلهْ
ورعبَ البطونْ

امراة

يعرفُها الليلُ المتوجّسْ
لونُ الجدرانْ
سعلة أعمدةِ الضوءْ
نهر الفخذين افترشا الشارعْ
قالتْ هلْ يسألني الأفقُ عن الطيرِ الشاردْ
أم يَركزُ في سُرّة عمري الليلُ الرمح
تثبُ القطّةُ من عينيها المتعبتين.
تلعقُ أحذيةَ الليل
جَاءَ الشرطيُّ هزيلاً منتصباً
ضَجّ الوقتُ حضوراً.
الضوءُ نداءٌ سِرِّيٌّ يطردُه الوقتْ
والليلُ الدُبُّ يمزّقُ بأظافرهِ المتْعَبَ
والسكيرَ وخشبَ الحانهْ
مَرَّ الشرطيُّ بيمناه على وجهه
ثم تململَ موْبوءاً بهزاله
بَصْقَتُهُ اللامعةُ على الأسفلتِ صراخْ
يسألها المخمورُ سؤالاً
قالتْ:
ليلُ القاهرةِ العوْرهْ
وقتٌ للاحسانْ
وقتٌ للنومْ
وقتٌ للقبلاتْ
لمْ أعْرفْ منذ متى
كنا نمضى اليوم معاً
نلعبْ
أو نشحذْ
في الليلِ الباردِ نتقاربْ
لكن نعرى صيفاً
قالَ الشرطيُّ كلاماً ورِعاً
قالتْ شيئاً بشِعاً
والقطّةُ أضحتْ ذئبهْ
عَرّتْ ـ حانقةً ـ فخذاً
فوق الركبهْ
في العمقْ
ثمة طعنهْ

اغنية بنت سمرا.

يحلو لي أحياناً أن أحلمك بأرضٍ مَا
قاحلةً كلياليّ بدونِك
يحلو لي أن أرسمكَ
خفيفاً كالبُرْءْ
منفيّاً بحدائق يومٍ أخضرْ
يحلو لي أن أرشقك بجيبِ قميصي
وأساومُ روحي
وقدةَ جسمي
أوتارَ القيثارِ بقلبي
لكن لا أسلمكِ
أمنحك أماني وشواطىءَ خلجاني
وأنادي سفنك أن تمخرَني
بحّاراً يثقله الدمُ والغربهْ

آهٍ..
هل كانَ زمانٌ قبل الآنَ وشاطرتك دمّي
هل كان جبينُك مرفأَ تعبي
أوْ لمْ أجعلْ من عينكِ مرآتي
أوْ أوهمتُ الضوءَ بأني سيّدته
أوقفني الوقتُ عَن السيرْ
حاولني الليلُ فأودعتُ بكفك سِرّي
أرفضُ أن أسلمك لهذا التعبِ المزهوّ بنفسه
أرفضُ أن يصبحَ يومك يومانا
أفقاً للوهم.

تويجه صامتة

هذا وقْتٌ تهوى فيه نجومْ
وتموءُ امرأة
ينهضُ شيخٌ لصلاته
بعد قليل سيفاجئك الفجرُ المتلوّنُ بزهورٍ خرْساءْ
وتنوحُ بساحاتِ القلب
الفتياتُ الغجرياتُ ويُؤْمَر بأغنيةٍ ومسدّسْ
هذا وقتٌ
يرتجلُ الكون بساحتِه المزهوةِ شعراً أجوفْ
تتنهّد بنتْ
ويموجُ البحرُ بفخذيْ عاشقةٍ غادرتَ سمَاها
هذا وقتُ تسعل في شرفته العتمهْ
يحلمُ طفلٌ مشلولٌ بالركضِ وراءَ المترو
وتُعدُّ امرأةٌ متعبةٌ صحفَ اليومِ القادم
وتسوطُ القوّادُ سبيّته
تملأ أشباحُ الرعبِ
فراسنَ سياسيٍّ مهزومْ

القاهرة